ولي الله

نجيب الكيلاني

كان الشيخ « وهدان » سيد الاتقياء في القرية بلا منازع . وكان المثال الأرفع لكل الصالحين ، لحيته السوداء المهدبة والتي تتخللها الشعرات البيضاء تشع طهرا وقداسة ، نصف ابتسامة مميزة توحي بأنه رجل يعيش في عالم آخر ، عالم الكرامات والملائكة والتسابيح . واذا ماسار في دروب القرية سبقه أريج فواح يرتبط في ذهن البسوة والأطفال والرجال برائحة الجنة ، وليس هناك في القرية من لايعرف الرجل النحيل القصير الوسيم ، والذي يقبل على الثرثرة او الانشغال بامور الدنيا عطيمها وحقيرها فيومه موزع بين الصلاة في المسجد ، وقراءة الأوراد فيما بين الصلوات ، والخلوة في البيت او في احد الاضرحة ، وفي بعض الليالي يحتشد حوله الدراويش ، ويستمعون الى الأغاني الصوفية المعدة ، أو يشتغلون حماسا وهم يطوحون بسبحة ويسرة ، وأماما وخلفا ، في حلقة الذكر والمعرفة .. هذا هو الشيخ وهدان شيخ الطريقة الصوفية .. والرجل الذي تتابعه العيون في تجلة ووقار ، وتنحني له الجباه اذا ماسار ، وتتلقى الأسماع كلمته وكأنها أمر الهي لاتعض فيه ولا ابرام ... لم يكن أحد يقادر على أن ينكر أنه فوق طبيعة البشر .

والغريب ان أولاده — الذين تتراوح اعمارهم بين العاشرة والخامسة والعشرين — كانوا أبعد مايكونون عن التقى والصلاح ، بل كانوا مثالا سيئا في استهتارهم وآثارتهم للمشاكل واهمالهم في تلقي العالم ، وكان الناس يضربون كفا بكف ويتمتمون : « لا حول ولا قوة الا بالله » يخلق من ظهر العالم فاسدا ، ومن ظهر الفاسد عالما .. سبحانه » ، ومع الرغم من رقة حاشية الشيخ ووداعته الا أنه كان يتعامل مع أبنائه في قسوة وحنق .

ولم يحدث انحراف أولاده شيئا من سمعة الشيخ ، ولا الثقة به ، بل ظل صرحا كبيرا محوطا بالجلال والهيبة والوضاءة ، وظلت وفود العصاة تلجأ اليه طالبة الهداية ، سافحة دموع الندم ، تقبل يديه في شغف ، وتعفر حذاءها بالتراب الذي يسير عليه ، وتتسابق الى الماء المتخلف عن وضوئه كي تتبرك به ، وتتداوى من السقام .

وصحت القرية ذات مساء على خبر غريب تفجر في أفقها كالقنبلة الشديدة الانفجار ، وشاع الخبر في كل زقاق

وشارع ، لكن الناس رفضوه رفضا صارما ، واعتبروه مجرد شائعة قذرة يلجأ اليها الفاسقون المحلون ، كي يطعنوا الشيخ في سمعته ، ويبالوا من قداسته التي اصبحت مضرب الأمثال .

وقال الشيخ ناصف مؤذن المسجد الكبير :

ـ « وماذا تنتظرون غير ذلك ؟ ! الم يقولوا عن النبي قديما انه ساحر .. وكاهن .. ومجنون ؟ ! »

وقال حادي حلقات الذكر ، صاحب الصوت الرخيم ، والخمريات المؤثرة :

ـ « شيخنا يصلي في الكعبة كل مساء .. انه من أهل الحظوة » .

فرد عليه « عبد المطلب » تاجر المخدرات بالقرية :

ـ « بل يصلي كل ليلة في بيت « نعناعة » .. ذات العيون الزرقاء ... »

فقال الحاوي مشيحا بوجهه ، مستغفرا الله :

ـ « أيها الفاسق اتتهم أسيادك ؟؟ اعرف انك تكرهه منذ ان افتى بان تعاطي المخدرات حرام .. كلكم أصحاب مصالح » .

فرد عبد المطلب ساخرا :

ـ « الم تكن مصدقا لما اقول ، فلتنتظر تحت شجرة التوت امام منزل « نعناعة » .. عند ذاك ستقطع الشك باليقين » .

وكانت نعناعة ارملة جميلة ، لها عينان ورقاوان فيهما حراة وجمال ، ولنظراتها تحد قاتل ، وبشرتها البضة الشقراء التي لوحتها الشمس تشتهي اليها العيون العائمة وغير العائمة ، المحيون بها كثيرون ، وعشرات الاقاصيص تروى عن عشاقها وزوارها والمتشوقين للزواج منها ، ولم يكن احد يدري لماذا لا تتزوج وهي تمتلك هذا الجمال كله ، ورغم البعض أنها وجدت الحياة هكذا أكثر فائدة وربحا من الزواج ، ما أشبهها بالاميرة المدللة التي تتسابق اليها الرجال بالهدايا والتضحيات ، ومن يفكر في الاعتداء عليها ، او التصدي لرغباتها لايستطيع الصمود في الميدان طويلا ، فهناك متطوعون للانتقام منه ، واعطائه درسا قاسيا في الادب والاخلاق ..

فكيف يفكر الشيخ وهدان في الزواج من امراة كهذه ؟؟

وكيف يفكر في الزواج اصلا وهو القدوة والمثال ، وهو المتزوج صاحب العيال ؟!

الزواج في مثل هذه الحالة ـ كما يعتقد أهل القرية ـ ضرب من المتعة والرق ، او رجس من عمل الشيطان لايليق بشيخ عظيم ، وول من أولياء الله الصالحين ، كالشيخ وهدان ، ان التقاء الشيخ وهدان بنعناعة من رابع المستحيلات ، لقاء ملاك وشيطان ، والشيخ كان يخطب بالأمس ويقول « الخبيثات للخبيثين ، ولا يمكن أن يضم بيته احدى الخبيثات .

لهذا أنكر أهل القرية الأمر ، واعتبروا الشائعة نيلا قاطعا ، وازدادوا ايمانا بالشيخ وهم يرونه يسير مرخي العنان ، والمسبحة الطويلة في يده ، وشعثاء لاتكفان عن التمتمة وترديد اسم الله

الحي القيوم ، الواحد الأحد ، وكيف لايؤمنون به وهم يرون الدموع تنسكب فوق لحيته الطاهرة كلما تغنى الحادي مادحا السيدة زينب .

يا بنت الأطهار ، انا المختار ..
داويني

جسدك له معجزات .. مسلات دواويني

لكن الواقع مر أليم ، ومايرونه بعيونهم غير ماتوهمونه ..

لقد رأوا الشيخ يتردد على بيت نصابة كل مساء .

ماذا يفعلون ؟؟ أيكذبون عيونهم ؟؟ أيصدقون مايرونه خداعا بصريا ؟!

وعادوا الى الشيخ ناصف مؤذن المسجد ليستفتوه .

ـ « ماقولك ياعم الشيخ ناصف » ؟

فهز الشيخ رأسه شان العالم بخوافي الأمور وقال :

ـ « انتم ضعاف العقول ، ضيقو التفكير » .

فرد عليه عبد المطلب تاجر المخدرات وهو يلوك شيئا في فمه :

ـ « كيف ؟! تريد أن نفهم » .

ـ « ألم تسمعوا عن الصالحين الذين كانوا يجاهرون ببعض التصرفات المشينة .. كأن يشربوا في رمضان ، ويزوروا الأماكن المشبوهة ؟؟ أتدرون لماذا ؟؟ »

فهتف عبد المطلب ساخرا وقال :

ـ « لماذا ؟! »

ـ « كي يتهمهم الناس ، ويشمئزوا عليهم ، فيكتسبوا الثواب .. انهم يريدون ان يكونوا الاتقياء الاخفياء .. وهناك طائفة من الواصلين سقط عنهم التكليف » .

قال عبد المطلب وهو يشعل سيجارة :

ـ « مامعنى سقوط التكليف يا فهامة ؟؟ »

ـ « الواصلون ليسوا مثلنا .. فالفرائض واوامر الشرع لامثالنا ناقصي الايمان .. أما امثال الشيخ وعدان فلهم حكم آخر .. لقد كشف الحجاب عن بصرهم وانتهى الأمر .. أما انا وانت وباقي الناس فمساكين ، نعافر الخطايا والذنوب جحودا وتكرانا لفضل الله » .

قال عبد المطلب في حنق :

ـ « والابن الاكبر للشيخ ؟؟ » .

ـ « ماله ؟؟ »

ـ « ألا يعلم أبوه أن ابنه من الواصلين أيضا ؟؟ »

ـ « ماذا تقصد ؟؟ »

ـ « اعني انه يعشق نعناعة .. وصل اليها قبل أبيه »

وسبه الشيخ ناصف ولعنه ، وصرح فيه :

ـ « اذهب يا عبد المطلب .. أنت ملعون .. ملعون » .

ولم يخف على أحد أن عبد المطلب قد اهتم بالشائعات التي تلاحق الشيخ ونعناعة ، وأخذ يتقصاها وينشرها في كل مكان ، ولم يأل جهدا في تسميقها

والمبالغة فيها ، بل انه استطاع الوصول الى نصاعة ، وفاتحها فى الموضوع مدعاء وخمث لا يقدر عليهما الا مثله ، وقالها

ـ « آه .. فتنت الشيخ بالصاعة » .

فانفرجت شفتاها الورديتان عن ضحكة منغمة خليعة ، وقالت

ـ « انتم تظلموننا .. انما التمس البركات » .

ـ « كل ليلة ؟؟ »

ـ « كل ليلة يا عبد المطلب » .

فتنهد فى لؤم وقال

ـ « ماكنت اعتقد أن الأولياء يعشقون » .

ـ « لكن الله جميل يحب الجمال .. والشيخ شريف طاهر حتى فى عشقه »

ـ « لقد فاحت رائحة الفضيحة » .

فردت وهى تغمز باحدى عينيها

ـ « واذا كنا سنتزوج ؟؟ »

ـ « تتزوجان ؟؟ » .

ـ « فى الحلال يا عبد المطلب ؟؟ »

ـ « هذا الحق » .

فقالت وهى تهم واقفة

ـ « أعرف أن وقتك ثمين ، والزبائن ينتظرونك .. مع السلامة » .

واصطدم عبد المطلب لدى باب البيت بابن الشيخ ، كان الشاب مكفهر الوجه ، تشتعل نظراته حقدا ، واندفع كالسهم ، وعلى وجه سيما الجنون ، ولمحه نصاعة وهو يدخل ، فهتف به

ـ « لا تنس ان تغلق الباب » .

فصفقه فى عنف ، ومضى نحوها مكورا قبضتيه ، فاسرعت قائلة

ـ « أهلا .. حبيبى » .

فامسك بعضدها فى غلظة وهدر

ـ « أيتها المجرمة »

فشهقت مستغربة ، دون أن تبدو عليها اية بادرة من خوف وقالت

ـ « حبيبتك مجرمة ؟؟ »

ـ « كفى خداعا » .

ـ « ماذا جرى ؟؟ »

ـ « أتتجاهلين ؟؟ انى أعرفك » .

فأفهم من هى نصاعة اللعوب ، لكن ثمى أنى قادر على ان اذبحك كما تذبح الفرخة » .

فقالت فى هدوء

ـ « يجب أن ترتاح قليلا .. انت تأثر الأعصاب ولن ينفى أى تصرف سليم وانت على هذه الحالة » .

ولم يكف أحمد ـ وهذا اسمه ـ عن الحديث ، وأخذ يروى لها كيف أن أباه الشيخ وعدان أحضرهم البارحة أنه ينتوى الزواج منها .. من نصاعة ، وأخذ أحمد يعنف فى لومها ، كيف تجارى الشيخ الكبير فى هذا العمر ، وكيف توافقه على أفكاره تلك ، وهل نسيت أن فى هذا الزواج اهدارا لكرامة الشيخ وسمعته ، وتهديدا لمركز الاسرة ومنزلتها بين الاسر فى القرية وفى القرى المجاورة ؟؟ .. وأخيرا .. هل نسيت أنها اتفقت مع احمد على الزواج ، وانهما

سيتزوجان سوء أوافق الشيخ أم لم يوافق ؟؟

واقتربت نعاعة منه ، والصقت جسدها بجسده ، وهمست في أذنه بكلمات ناعمة ، كانت أنفاسها تبعث الدفء في قلبه ، والحدر في جسده كله ، وهم بأن يضمها اليه ، لكنها ثبت بعيدا عنه في حدة وهي تقول :

ـ « وماذا أفعل ؟؟ ان أباك رجل لا يقال له « لا » .. الجميع هنا يطأطئون له الرؤوس ، وأوامره للطاعة والتنفيذ ، وهل كنت أحلم برجل له مثل شرف مكانته ، وقداسة سلوكه ؟! ماذا كنت تفعل لو كنت مكاني ياأحمد ؟

ورماها احمد بنظرة نارية ، ثم هب واقفا واندفع اليها قائلا :

ـ « أفهم لعبتك .. مارايتك مرة تصدين طامعا .. دائما تتلددين برؤية الرجال وهم يركعون أو يتصارعون من حولك ، لكن أبي لن يركع .. أبي لن يركع ، ولن يكون لعبة بين يديك .. أتفهمين ؟؟ »

قالت نافرة :

ـ « لتقل له هذا الكلام » .

فرد بعبارة كانت كالنطفة القاسية :

ـ « أبي أشرف من أن يحبك » .

فقالت في سخرية :

ـ « وأنت يا نور العين » .

ـ « أنا غير أبي .. أنا كلب مثلك .. هذا نصيبي » .

ـ « وماذا تنوي أن تفعل ؟؟ »

ـ « سأتزوج غدا » .

فاقتربت منه ، وطوقته بذراعيها ، ولم تمانع حينما هم بتقبيلها ، وهمست

ـ « هذا هو الحل الوحيد » .

لم يكن احمد مرتاحا لهذا التصرف ، ولم يكن يشعر في قرارة نفسه بالسعادة الحقيقية التي كان يحلم بها قبل ذلك ، ان ماحدث بينها وبين أبيه من علاقة طارئة ، وماصاحب هذه العلاقة من شائعات واقاويل ومبالغات كاذبة ، قد أتعسه ، وملأ صدره بالمرارة ، ولم يكن هذا الزواج المفاجيء بالذي سيرضي والده ، ومع ذلك فقد وجد نفسه مضطرا لأن يفكر في الخطوة الأخيرة .

في صبيحة احد ايام الصيف المشرقة ، انبعثت من دار نصاعة زغرودة عالية ، وسرى النبأ في كل مكان .. لقد تزوجت نصاعة من احمد وهدان ابن الشيخ ، واحدث النبأ هزة عميقة ، وصدى بعيدا ، وخرج الشيخ ناصف مؤذن المسجد الى الناس ، وكان بينهم عبد المطلب تاجر المخدرات .

ـ « الم أقل لكم ؟؟ دائما تسيئون الظنون بالناس الأطهار الشرفاء .. لم يعش الشيخ نصاعة وانما اراد هدايتها الى الطريق المستقيم حتى يزوجها من ابنه .. هل رأيتم بيتا أعظم من ذلك » ؟

فرد عبد المطلب ساخرا :

ـ « ولم لا تقول ان المنافسة كانت حادة بين الشيخ وابنه ، وكل واحد تمناها لنفسه ؟؟ » .

فصاح الشيخ ناصف غاضبا :

ـ « اطردوا هذا الشيطان .. انه متجرح لايرعى حق أسياده ، ولايصون كرامتهم » .

ـ « لكن نصاعة قالت ذلك .. والناس كانوا يعرفون .. ثم ان الشيخ بشر مثلنا » .

فقال الشيخ ناصف وهو يلوح بيده :

ـ « ردوا أيها الناس .. قولوا لعبد المطلب الفاجر الحقيقة » .

فتحولوا نحو عبد المطلب ، وأخذوا يتسابقون الى صب اللعنة عليه ، وامتدت ايديهم وارجلهم بالصفع والركل ، وأخذ عبد المطلب يحاول الهرب جاهدا ، وقد وضع كفيه على وجهه ورأسه ليتقي الضربات ، وابتسم الشيخ ناصف في سعادة وتمتم :

ـ « هذا جزاء الكاذبين » .

أما الشيخ وهدان فقد لزم داره ، لم يعد يراه أحد يمضي في الطريق تشع منه التقوى والوصاية ، ولم يعد يتوسط حلقة الذكر ، ولم تعد تلمع دموعه فوق لحيته الطاهرة وهو يستمع الى أغاني المتصوفين ، والزمه المرض الفراش لثلاثة شهور .. ولم يغادر بيته الا يوم وفاته .. يا له من يوم .. كانت الطرق مزروعة بآلاف البشر ، ودقات الطبول تصم الآذان ، ورجال الطريق يهتفون باسم الله .. والاعلام الخضراء والحمراء ، والبيارق العالية تمتد الى بعيد .. والموكب يبتدأ من القرية ولا ينتهي الا عند القبة البيضاء المشرقة التي سيدفن تحتها الشيخ وهدان .. ولي الله .